٦٩ شمس الدين الحنفى
صوفى أدهش السلاطين

الحديث الآن عن العارف بالله شمس الدين محمد بن على بن حسن البكرى الشاذلى. الذى ينتهى نسبه إلى خليفة رسول الله ﷺ أبى بكر الصديق رضى الله عنه.. والمشهور فى مصر بالسلطان الحنفى.

ولد هذا العارف الصالح سنة سبع وأربعين وثمانمائة هجرية، ونشأ يتيم الأبوين، فتولت إعالته وتربيته خالة له كانت متزوجة من رجل متوسط الحال. فى ظاهره التقى والطيبة وحُب الخير، وفى باطنه القسوة والغلظة والشر. فكان يتظاهر لزوجته بأنه يحب الخير لهذا الغلام، وأنه يريد أن يعلمه صنعه يعيش منها، ويبطن له ماهو غير ذلك تماماً. ويبدو أن الفتى قد أدرك حقيقة زوج خالته، فكان يطيعه على مضض، حتى إذا ألحقه بواحدة من الصناعات كان يهرب منها مُيَمِّماً وجهه شطر مكتب تحفيظ القرآن الكريم. وتكرر منه ذلك مرات، حتى إذا عرف زوج خالته.. راَقَبَ الغلام إلى حيث يذهب، فرآه ينتهى إلى مكتب التحفيظ، وهنا أخرجه من المكتب بشدة، وسبَّه وعَنَّفَهُ، وضربه ولَطمه، حتى غشى عليه، وصار يبكى وينتحب، ويقول تلقائياً وهو لم يزل طفلا صغيراً ما يصلح افتتاحية لقصيدة:

ما هكذا كنت فى أهلى وفى وطنى   إن الغريب غريب أينما كانَ

ولكنه برغم كل ذلك واصِل الذهاب إلى مكتب التحفيظ، حتى أتم حفظ القرآن الكريم، وبدأ مرحلة جديدة من طلب العلم، وفى الوقت نفسه يتكفل بإعالة نفسه من جنس ما يطلبه من العلم، فاشتغل بتجارة الكتب. واستمر على

هذه الحالة فترة، يبدو أنه كان فيها راضياً عما يفعل، وخاصة أنه استطاع أن يستغنى عن أن يكون عالة على خالته وزوجها القاسى. . إلى أن مر به رجل من الصالحين، لا تذكر الروايات اسمه، برغم أثره الكبير على تحوّل حياة هذا الفتى الذى أصبح شاباً.

لقد ابتدره هذا الرجل الصالح قائلا: «أنت إلى الآن لم تتفرغ تماماً لطلب العلم» وبعد حديث طويل بينهما أشار عليه أن يقيم فوق قطعة من الأرض يملكها صديق له ميسور الحال، كان زميلاً للفتى فى مكتب تحفيظ القرآن. . فرد عليه الشاب قائلا: «إن هذا مرهون بموافقة صاحب الأرض». وما إن وافق حتى بنى عليها خلوة يقرأ فيها ويتعبد، وهو لم يزل شاباً فتياً.

وحين بلغ العشرين من العمر عرض على صديقه وزميله الذى تنازل له عن قطعة الأرض التى بنى عليها خلوته: قائلاً: «أرأيت لو ذهبنا إلى الشيخ ناصر الدين الميلق ـ وكان من مشايخ الصوفية ـ نأخذ عنه العلم والطريق. . العلم الذى ينقصنا، والطريق الذى سار عليه السلف الصالح قبلنا».

ويوافقه صديقه وزميله على هذه الفكرة التى كان لها كبير الأثر على حياة الحنفى بعد ذلك، حتى نراه يقول: «وذهبنا إلى الشيخ ناصر الدين، وتعلمنا منه الذكر على طريق القوم من الصوفيين الصالحين، وصرنا نتردد عليه لننتفع به وننهل من علمه وفضله. وعرفنا بعد ذلك أن الشيخ ناصر الدين الميلق قد أخذ العلم والطريق عن جده شهاب الدين الميلق، والجد أخذه عن الشيخ ياقوت العرش، وهذا أخذه عن الشيخ أبى العباس المرسى، وهذا الأخير أخذه عن أستاذه أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنهم أجمعين. . »

ومما يذكر فى التاريخ للحنفى، أن إمامَ الشاذلية أبا الحسن الشاذلى قد تنبأ بظهوره قبل مائتى سنة، حيث قال ذلك أحد مشايخ الصوفية، ويدعى الشيخ حسن الخباز المدفون بقرافة الشاذلية مؤكدا قوله بما تناقله عن السابقين عليه، حيث ذكر: «أخبرنى بذلك ابن اللبان، عن ابن عطاء الله السكندرى، عن ياقوت العرش، عن أبى العباس المرسى، عن أبى الحسن الشاذلى أنه قال: «سيظهر بمصر

رجل يعرف بمحمد الحنفى يكون خاتماً لطريقتى، ويشتهر فى زمانه، ويكون له شأن عظيم».

وفى رواية أخرى عن الشاذلى رضى الله عنه له أنه قال: «يظهر بمصر شاب يُعرف بالشاب التائب، حنفى المذهب، واسمه محمد الحنفى، ويُرَبَّى يتيماً ويعيش فقيراً..»

ومهما يكن مبلغ الصدق أو عدمه فى هذه الروايات وغيرها، فالثابت أن الحنفى تربى بالفعل يتيماً، وعاش فقيراً، وسار على طريقة الإمام الشاذلى بعد ذلك، حتى أصبح قطباً لهذه الطريقة فى مصر.

وطبيعى أن يكون للحنفى مكانة فى عصر المماليك، هؤلاء الذين كانوا يعملون حساباً لرجال الدين، وعلى وجه التحديد أصحاب الطرق الصوفية حتى إن الشيخ عبد القادر الجيلى يروى: «أن أحد سلاطين المماليك قصد زيارة الحنفى فى زاويته، فقام الحنفى واستقر فى خلوته عازفاً عن لقاء هذا السلطان، فما كان من الأخير إلا أن دخل عليه إجلالاً وتعظيماً، وبادره بالتحية، ليردها الحنفى وهو جالس فى مكانه، حيث كان لا يقوم لأحد قط ـ سلطاناً كان أو مليكاً أو وزيراً. ولا يغير من طريقة جلسته لدخول أى منهم، وكان كل من يدخل عليه خلوته، لايجلس بجانبه احتراماً وتقديراً لمكانته، وإنما يختار له مكاناً فى أحد جوانب الخلوة. يفعل هذا طلباً لرضا هذا الرجل الصالح».

وحتى إذا حدث أن كان أحد السلاطين لا يعتقد فى هؤلاء الصالحين نراه يتظاهر بذلك خوفاً من التفاف الناس حولهم، حتى أنه حدث أن أحد سلاطين المماليك ـ ويدعى «الظاهر جقمق» ـ كان سيئ الاعتقاد بطائفة الصوفية، وكان لايحب الحنفى على وجه التحديد، بل يكاد يبغضه، ومع ذلك كان يبعث إليه رجاله طالباً دعواته، وكان يقول لمن حوله: «إنى لا أقبل هذا الرجل ولكن أطلب دعواته وأتعجب من نفسى».

ويروى أنه زاره ذات يوم الملك المؤيد، فقيل له: «إن الحنفى فوق سطح بيته، فطلب من مريديه أن يبلغوه حتى ينزل ويكون فى استقباله، فصعد إليه أحد

obeikandi.com

المريدين يبلغه بقدوم الملك، فما كان من الحنفى وقد استفزه هذا الطلب الذى اعتبره أمراً ملكياً أن قال لمريده: «قل له الحنفى لا يجتمع بأحد فى هذه الساعة» فرجع الملك المؤيد إلىَ القلعة بالعاً هذه الإهانة التى لو كانت قد حدثت من أحد كبار رجال دولته من المدنيين لكان له معه شأن آخر، ولكنه مع الحنفى قَبِلَهَا راضياً، إمَّا تقديراً لمكانته كرجل من الصالحين الذين يُعامَلُون معاملة خاصة، أو متظاهراً بهذا التقدير والاحترام، فلا يأتى بعمل من شأنه أن يكون مضاداً لمشاعر المئات والألوف التى تلتف حوله من المريدين والأتباع.

وزيادة فى إظهار هذا التقدير أرسل الملك المؤيد أحد أمرائه ومعه شكارة مملوءة بالعملة الفضية، حتى إذا جلس إليه وسلمها له بما فيها من عملة. صار الحنفى يقبض منها ما يملأ يده ويعطيها للناس، حتى انتهى منها ولم يزل الأمير جالساً معه، كأنه يريد أن يحمل رسالة إلى مليكه، وهى «أن الفقراء أمثال الحنفى فى غِنىً عن ذهبه وفضته، وأنهم لو أحبوا الدنيا ما كان لهم مثل هذا المقام بين الناس».

وهناك رواية سجلها شيخ الإسلام شهاب الدين ابن حجر. ذاكرا لفضلٍ لاينساه لهذا الرجل الصالح «الحنفى» ومكانته عند الملوك والسلاطين، وخلاصة هذه الرواية: أنه عندما عُزل ابن حجر من منصبه كشيخ للإسلام، أرسل الحنفى أحد مريديه إلى السلطان وقال له: بلِّغْهُ ـ أى السلطان ـ بأن يرد الشيخ ابن حجر إلى ولايته. فكتب السلطان مرسوماً بعودة شيخ الإسلام ابن حجر، احتراماً لطلب الحنفى.

ورواية أخرى تشير إلى ما كانت عليه مكانة الحنفى عند الملوك والسلاطين والأمراء، حيث يروى أنه حين مرض أحد السلاطين زاره الحنفى، غير أن الناس عندما تسامعوا بنبأ تلك الزيارة ترادفوا على باب السلطان، يطلبون قضاء حاجاتهم المتأخرة بمناسبة هذه الزيارة الكريمة. وهنا أمر السلطان بألا يرد لطالب حاجة طلباً إكراما لخاطر زائره الصالح. حتى بلغ عدد القضايا التى حكم فيها خمساً وثلاثين قضية، كانت من قبل معلقة برأى السلطان.

وهكذا كان الحنفى رضى الله عنه موضع تقدير واحترام ملوك وسلاطين زمانه من المماليك، ولذلك اشتهر أمره بين الناس بأنه هو السلطان الحقيقي والدائم الذى لا يرد للناس طلباً. حتى إذا أراد بعضهم أن يلوم أحداً فى أمر من الأمور استشكل عليهم، سرعان ما يقولون: سنرد الأمر إلى السلطان الحنفى ليحكم فيه. ولعل هذا هو سبب شهرة الحنفى بلقب السلطان.

وأما سبب تسميته بالحنفى، فإن ذلك يرجع إلى كونه على المذهب الحنفى، وكان يحكم به ويفتى، ولذلك سُمِّىَ بالحنفى اختصاراً لاسمه.

وقد عاش السلطان الحنفى مُحاطاً بمحبة الفقراء والبسطاء، واحترام أصحاب الجاه والسلطان طول حياته، إلى أن توفى ودفن فى المكان الذى بنى عليه خلوته، والمعروف الآن بحى الحنفى، أحد أحياء القاهرة الآن.

* * *

obeikandl.com